

## مركزية الأخلاق في المنظومة الإسلامية انطلاقاً من السُّنة النبوية

■ عبد الله الجباري

ارتبط الدينُ بالأخلاق ارتباطاً السَّوار بالمعصم، ولم يكن الدين في جميع مراحل الرسائل السماوية منفصلاً عن الأخلاق، وكان الأنبياء أول المتخلقين بمحاسن الخصال، مثل قيمة الستر التي عُرفت مع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما إن ظهرت له ولحواء عورتهما حتى أسرعاً إلى الستر، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22، طه: 121]. ومثل الشكر، ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3]. والجلم في إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114]، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصفوات: 101]، والصبر في أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]، إلى غير ذلك من أخلاق الأنبياء، وهي من تخلَّقهم بأخلاق الله تعالى، فهو الرحمن الشكور الصبور الحليم سبحانه.

ولم تكن الشرائع السماوية بمنأى عن القيم الأخلاقية، فأهم الأحكام الموسوية هي ﴿تَسْعَ آيَاتٍ بَيَّنَّتْ﴾ [الإسراء: 101]. وهي التي فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ب: النهي عن الشرك، وتحريم الزنا، وتحريم قتل النفس إلا بالحق، وتحريم السرقة، وتحريم السحر، وتحريم السعي

■ باحث في الدراسات الإسلامية، المغرب.

في قتل الأبرياء، وتحريم الربا، وتحريم القذف، وتحريم الفرار يوم الزحف. وأغلب هذه الآيات التسع أخلاق، أو ما يؤول إلى الأخلاق. ولعل هذه الآيات هي ما اصطلح عليه في الثقافة اليهودية بـ «الوصايا العشر»، وهي وصايا أخلاقية في العمق والجوهر، وردت في سفر الخروج، ومنها (أكرم أباك وأمك - لا تقتل - لا تزني - لا تسرق - لا تشهد على قريبك شهادة زور - لا تشته زوجة غيرك).

وفي مقابل الموقف الموحد للأنبياء والشرائع نجد للفلاسفة والمفكرين مواقف متباينة من الأخلاق، فمنهم من يرفضها، وينعتها بنعوت قذحية، مثل الإنجليزي برنارد ماندفيل Bernard Mandeville الذي تساءل: «ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟» ثم أجاب بكل سهولة: «لا شيء، بل لعلها تكون ضارة». وحين يتخلص بعض الفلاسفة من الأخلاق تصدر عنهم بعض المقولات التي لا تخطر ببال، مثل قول نيتشه Nietzsche: «تخلص من الضمير ومن الشفقة والرحمة... اقهر الضعفاء واصعد فوق جنتهم»<sup>1</sup>.

بناءً على ما سبق، يجدر بنا أن نغوص في بطون مصنفات السنة النبوية الشريفة، ونتساءل: كيف تعامل النبي الأعظم ﷺ مع الأخلاق؟ وما المكانة التي تحظى بها الأخلاق في السنة النبوية؟

## أخلاق الرسول ﷺ :

بالرجوع إلى سيرة النبي ﷺ قبل البعثة، فإن ناعته لم يصفوه إلا بزكّي الخصال، وعظيم السجايا، وكفي شهرته بـ «الصادق الأمين»، وهما صفتان لا يتخلق بهما ولا يلزمهما إلا أولو الحجا، وأرباب التقى، وتكفي منهما صفة الأمانة؛ فهي روح الإيمان وجوهره، و«الإيمان» و«الأمانة» مشتقان من نفس الأصل اللغوي نفسه، وهذا من حظوظ النبي ﷺ وخصوصياته؛ أن وفقه الله إلى الأمانة قبل البعثة، وأدبه بها، وزينه بجمالها. وقد تنبه القرشيون لتأدبه بها، فوسموه بها، وهو ما يدل على أمور، منها:

1 - الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش: 195، مؤسسة بافارايا ومجلة النور، ط1. 1414هـ - 1994م.

- قلة المتصف بها، وندرته بينهم، وتميّز النبي ﷺ بها، ولو لم يكن متميّزاً لما ساغ وصفه بها، لاشتراكه مع غيره في لوازمها.
  - سُمّو خصلة الأمانة وعلو قدرها عند قومه، لذا وصفوه بها تمييزاً عن سواه.
- والأخلاق الحسنة للرسول ﷺ هي التي حفّزت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها لمنحه المال للتجار به، ذكر ابن إسحاق أنه لما «بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً»<sup>2</sup>. ولعل أخلاقه هي التي دعته إلى التقرب منه، والاقتران به، ليكون لها زوجاً، ولأولادها أباً.

**بالرجوع إلى سيرة النبي ﷺ قبل البعثة، فإن ناعتيه لم يصفوه إلا بزكّي الخصال، وعظيم السجايا، ويكفي شهرته بـ «الصادق الأمين»، وهما صفتان لا يتخلق بهما ولا يلازمهما إلا أولو الحجا، وأرباب التقى، وتكفي منهما صفة الأمانة.**

ولما أوحى إليه بـ ﴿أَقْرَأْ﴾ في غار حراء، رجع مفزوعاً إلى السيدة خديجة، ولم تجد ما تشد به عضده سوى شيمه وأخلاقه، فقالت: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»<sup>3</sup>. هذه شهادة المرأة الكاملة، في الإنسان الكامل، لا مستند لها سوى معيار الأخلاق.

أما بعد البعثة فتأتي الشهادات تتري، نورد منها شهادتي زوجيه عائشة وصفية رضي الله عنهما.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»<sup>4</sup>.

وقالت صفية بنت حيي رضي الله عنها: «ما رأيت أحداً أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ»<sup>5</sup>.

2 - السيرة النبوية لابن هشام: 188/1، طبعة مصطفى البابي الحلبي. ط 2، 1375هـ - 1955م.

3 - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

4 - رواه الإمام أحمد في المسند، مسند الصديقة عائشة رضي الله عنها.

5 - المعجم الأوسط للطبراني: 344/6.

يمكن للباحث أن يفسر هذه الأخلاق النبوية استناداً للظروف التاريخية والاقتصادية المصاحبة لها، ويمكن له أن يتساءل عن مصدر هذه الأخلاق النبوية، أهى نتاج البيئة القرشية؟ أم تربية خاصة تلقاها النبي ﷺ من أهل بيته الأقربين؟ أم تحلّى بها في بني سعد حين كان ثاوياً عند حليلة؟

من اليسر الحسم بنفي الاحتمالات السابقة؛ لأننا لم نجد مَنْ يشبهه ويدانيه في كمالته الخلقية، ممن شاركه الانتماء القبلي والعائلي والرضاع، مما يدل - بلا امتراء - على أن تأديبه رباني محض، سهرت عليه العناية الإلهية، واكمل ذلك بشق الصدر الشريف، وتطهيره من حظ الشيطان، ليكون الإنسانَ الكامل، أو «الإنسان النموذجي، إنسان الختم»، فاستحق أن يكون نموذجاً لسواه، واستعد لحظتها أن يكون صاحب الخلق العظيم<sup>6</sup>.

### مكارم الأخلاق... المقصد الأهم من البعثة

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»<sup>7</sup>، وقد تضمّن الحديث أداة «إنما» التي تفيد الحصر؛ للدلالة على أن كل ما له تعلق به ﷺ من أقوال أو أفعال يؤدي - ضرورةً - إلى تثبيت الأخلاق الكريمة وترسيخها في قلوب المكلفين، وأن الأخلاق ليست من قضايا الفروع والجزئيات، بل هي من الأصول الكليات، قال المحدث السيد عبد العزيز بن الصديق الغماري تعليقاً على الحديث السابق: «الأخلاق المرضية من الدين، بل أصل من أصوله»، ولا تحتل الأخلاق هذه المكانة، إلا لأن النبي ﷺ «كما جاء بالإيمان بوحداية الخالق، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. جاء أيضاً بتعليم أمته الأخلاق المرضية، والآداب العالية، كما تشهد بذلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية»<sup>8</sup>.

6 - ينظر: سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن: 160 وما بعدها، المركز الثقافي العربي، ط3. 2006.

7 - رواه الإمام أحمد، مسند الكثيرين، مسند أبي هريرة.

8 - الأربعون العزيبية في مكارم الأخلاق ومعاليها للمحدث عبد العزيز بن الصديق: 3 (مخطوط).

وقد اعترف بهذا أقطاب المشركين المناوئون للنبي ﷺ ودعوته، قال أبو جهل: «والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق»<sup>9</sup>. ويكفي بهذا الاعتراف شهادةً.

## مكارم الأخلاق في الأحاديث النبوية المؤطرة<sup>10</sup> للأمة

صدرت عن النبي ﷺ أحاديث نبوية ترتقي - بالنظر إلى سياقاتها - إلى درجة الوثائق التأسيسية والتأطيرية للأمة، هي:

### الوثيقة الأولى:

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»، وقد تضمّن الحديث أداة «إنما» التي تفيد الحصر؛ للدلالة على أن كل ما له تعلق به ﷺ من أقوال أو أفعال يؤدي إلى تثبيت الأخلاق الكريمة وترسيخها في قلوب المكلفين.

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: لما ورد النبي ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قال: فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء سمعته يتكلم أن قال: «أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»<sup>11</sup>.

بالنظر في سياق هذا الحديث، يتبيّن لنا أنه صدر عن النبي ﷺ مباشرة بعد الهجرة، وهو أول ما قاله بعد وصوله إلى المدينة.

وإذا استحضرنّا تَعَبَ الهجرة ونَصَبَها، وطول المسافة، وصعوبة المسالك، ووعثاء السفر الاستثنائي، ومتابعة المشركين له ولصاحبه في الطريق، والاختباء في الغار، وترك الأهل والديار، وغير ذلك؛ فإنه من السائغ أن

9 - تفسير القرطبي: 112/17، اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين النعماني: 200/18.

10 - كل الأحاديث والسُنن النبوية ترتقي إلى درجة المرجعية التأطيرية للأمة، والمقصود من هذه العبارة أحاديث / وثائق أساس، وهي الخطبة الأولى في المدينة، والخطبة الأخيرة في حجة الوداع، ووثيقة / دستور المدينة.

11 - رواه الحاكم، كتاب الهجرة، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.



نسمع من النبي ﷺ بعد مقدمه حديثاً إلى مستقبله والوافدين عليه يدعو إلى الجهاد، أو يدعو على المشركين ويحرض عليهم، أو يرسخ عقيدة الولاء والبراء، أو يروي تفاصيل الهجرة ولأواءها، أو يركز على مواضيع سياسية ذات علاقة ببناء الدولة الوليدة، أو غيرها من المواضيع التي يفرضها السياق، ويتعطش لها المستمعون، ويودون التعرف إليها، لكن النبي ﷺ استثمر وجود عدد من الناس الذين انجفلوا لمشاهدته، ومنهم غير المسلمين<sup>12</sup>، للتركيز على الأخلاق، ولا شيء غير الأخلاق، فكان حديثه عن: • إفشاء السلام، • إطعام الطعام • صلة الأرحام.

وكلها من مكارم الأخلاق ذات الطبيعة الاجتماعية، التي يعود نفعها على الآخر من أفراد المجتمع، والتي تبني العلاقات الاجتماعية على أسس متينة، وأضاف إليها صلاة الليل، وهي من العبادات ذات البعد الروحي، والأثر السلوكي في الإنسان، مما يدل على أن البيان التأسيسي للأمة هو بيان أخلاقي محض.

### الوثيقة الثانية:

بعد الوثيقة الشفهية السابقة، تأتي الوثيقة الكتابية، وهي صحيفة المدينة، التي تضمنت جملة من القيم والكليات الأخلاقية، مثل<sup>13</sup>:

- حرية العقيدة: (لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم).
- نصرة المظلوم.
- التعاون في حماية المدينة.
- العدل في المعاملة بين المسلمين واليهود.

### الوثيقة الثالثة:

ثالث هذه الوثائق / النصوص النبوية: خطبة الوداع، وهي الخطبة التي ركز فيها النبي ﷺ على الأخلاق أكثر من غيرها، وحظيت بمساحة

12 - مثل عبد الله بن سلام راوي الحديث، فإنه كان يهودياً حين سمع الحديث وطلقاه.

13 - السيرة النبوية لابن هشام: 501/1.

مهمة من الخطبة؛ لما لها من دور في بناء الأمة وتَمَتِّين لِحَمَّتِها، ورصّ صفوفها، ومنها<sup>14</sup>:

#### أ - فضائل الأخلاق والحض عليها:

- أداء الأمانة: (فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها).
- تقرير مبدأ المساواة بين الناس: (إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لأدم، وأدم من تراب، ليس لعربي فضل على عجمي، ولا لعجمي فضل على عربي...).

بعد الوثيقة الشفهية، تأتي الوثيقة الكتابية، وهي صحيفة المدينة، التي تضمّت جملة من القيم والكليات الأخلاقية، مثل: حرية العقيدة؛ لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم)، نصرّة المظلوم، التعاون في حماية المدينة، العدل في المعاملة بين المسلمين واليهود.

- الحض على التقوى: (... ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى).

- المعاملة الحسنة للنساء: (اتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً).

- إكرام الجار: (أوصيكم بالجار).

- ترسيخ مبدأ الأخوة: (إنما المؤمنون إخوة).

#### ب - الأخلاق الرديئة والتحذير منها:

- القساوة والغدر، والاعتداء على الغير اعتداء مادياً أو معنوياً: (إن دماءكم وأموالكم

وأعراضكم حرام عليكم)، (المسلم مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)، (لا يحل لامرئ مسلم مالٌ أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه).

- الخيانة: (إياكم والخيانة؛ فإنها بسّست البطانة).

- الكذب: (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ).

14 - اعتمدت في إيراد نصوص خطبة حجة الوداع على متنها الذي جمعه فاروق حمادة من مصادر متعددة، وضمّنه كتابه: الوصية النبوية للأمة الإسلامية في حجة الوداع، ص 41 وما بعدها. ط 2. 1413هـ - 1992م.



- الظلم: (إياكم والظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة).
- الشح: (إياكم والشح، فإنما أهلك من كان قبلكم الشحُّ، فسفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم).
- أكل أموال الناس بالباطل، واستغلال ضعفهم وحاجتهم: (وربا الجاهلية موضوع).
- وبالتأمل في خطبتي التأسيس والوداع نجدهما خطابين أخلاقيين متكاملين:

■ خطابان أخلاقيان: لما للأخلاق من هيمنة على متنيهما.

■ خطابان متكاملان: لأن النبي ﷺ لم يكرر ما تقرر في الخطبة الأولى، من إفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام، بل انتقل إلى قيمٍ أخلاقيةٍ أخرى؛ ليرسخها في أذهان آلاف المخاطبين، ومن خلالهم إلى عموم الأمة.

### العبادات والقربات.. لا تكمل إلا بالأخلاق

قد تدلُّنا مجموعة من النصوص على ثواب بعض العبادات والأعمال، وسائر القربات، إلا أنها تحتاج إلى الأساس الخلقى، أو أنها لا تُعدُّ عبادة كاملة إلا إذا اقترنت بالأخلاق.

فالحج - وهو من أركان الإسلام - لا يرتقي إلى درجة الحج المبرور بإتقان الطواف أو السعي، أو بالحلق أو رمي الجمرات، أو غيرها من الشعائر والمناسك؛ بل لا يرتقي إلى هذه الدرجة إلا بالأخلاق، روى جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»، قيل: وما برّه؟ قال: «إطعام الطعام، وطيب الكلام»<sup>15</sup>، وروي بلفظ: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام»<sup>16</sup>.

15 - رواه الفاكهي في أخبار مكة: 408/1، والطبراني في الأوسط: 203/8، وحسن الهيتمي إسناد الطبراني.

16 - رواه الإمام أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله. قال الهيتمي: «فيه محمد بن ثابت، وهو ضعيف». مجمع الزوائد: 207/3.

بناءً على هذا النص فإن الحج الموجب لدخول الجنة يتوقف على «إطعام الطعام للفقراء والمحتاجين على سبيل المواساة؛ وللإخوان والأصدقاء على سبيل المكارمة»<sup>17</sup>، إضافة إلى الكلم الطيب، الذي يعوّد الحاج عليه لسانه من خروجه من بيته إلى حين عودته، ويتجنب الجدال والشتم. ثم إفشاء السلام؛ لأنه يلتقي هناك بكثير من المسلمين من شتى الأمصار والأوطان، فيكون إفشاء السلام وسيلةً للتعارف وتمتين العلاقات والأواصر بين الناس، ومدخلاً لترسيخ المحبة والوثام.

**الحج - وهو من أركان الإسلام - لا يرتقي إلى درجة الحج المبرور بإتقان الطواف أو السعي، أو بالحلق أو رمي الجمرات، أو غيرها من الشعائر والمناسك؛ بل لا يرتقي إلى هذه الدرجة إلا بالأخلاق.**

والصيام لا يكتمل أيضاً إلا بالأخلاق الحسنة، وتخرمه الأخلاق المستقبحة؛ «فإذا كان أحدكم يوماً صائماً فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ شتمه أو قاتله، فليقل: إني صائم»<sup>18</sup>.

ولعل الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي الحاتمي انتبه إلى مسألة اكتمال العبادات بالأخلاق، فقال - قياساً عليها - باكتمال الإنسان بالأخلاق أيضاً، فقال: «ومن تمام الإنسان وكماله أن يكون مرتاضاً بكمارم الأخلاق ومحاسنها، ومتزهاً عن مساوئها ومقابحها، آخذاً في جميع

أحواله بقوانين الفضائل، عادلاً في كل أفعاله عن طريق الرذائل»<sup>19</sup>، والوصول إلى هذه المرتبة عزيز بعيد التداول، إلا أنه ممكن، ولم يصفه بالكمال إلا لأنه إذا انتهى «إلى هذا الحد كان بالملائكة أشبه منه بالناس»<sup>20</sup>.

والإنسان الكامل عند ابن العربي الحاتمي مناقض لما يُعرّف في المنظومة والحضارة الغربييتين بالفرد الكامل، وهو الذي لا ينضوي تحت

17 - تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة: 101.

18 - رواه الإمام أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة.

19 - رسالة تهذيب الأخلاق لابن العربي الحاتمي: 133 مطبوعة ضمن مجموع (الرسالة الوجودية)، دار الكتب العلمية، ط 2. 1428هـ - 2007م.

20 - رسالة تهذيب الأخلاق: 163.

أي أنساق أخلاقية، لذا كان «الأدب الغربي منذ عصر النهضة يزخر بأفراد أبطال يوَدُّون التَّهَامَ العالم»<sup>21</sup>، ولا غرابة أن يكون الإنسان الكامل أو الإنسان الأعلى (السوپرمان) عند دارون، هو الذي وصل أعلى درجات الكمال البيولوجي، ولكنه محروم من سمو الإنساني؛ لأن هذا السمو ليس سوى هبة من الله<sup>22</sup>.

وكما أن العبادات لا تكمل إلا بالأخلاق، فإن عموم القربات تفضُّلُ غيرها بالأخلاق أيضاً، مثل الصدقة، فهي قربة من المتصدق، وتفضل غيرها من الصدقات إن قُدِّمت للقريب، قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»<sup>23</sup>. وأفضليتها مبنية على الجمع بين الصدقة وقيمة صلة الرحم؛ لأن هذه الصدقة تثمر - إضافةً إلى التكافل والتضامن - تقوية العلاقات العائلية، وتمتين الروابط والوشائج الأسرية. وغير ذلك من القيم التي عمل الإسلام على ترسيخها في المجتمع.

## الأخلاق والإيمان

قرن النبي ﷺ بين بعض القيم الأخلاقية والإيمان، وفاقاً لمنهج القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (تكررت في القرآن عشرات المرات، منها سورة البقرة: 25)، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُجُودَةٍ يُحِبَّهُ﴾ [الأنبياء: 94]، فالإيمان / العقيدة مقترن بالعمل الصالح / المثل والأخلاق، قال رسول الله ﷺ:

• «لا إيمان لمن لا أمانة له»<sup>24</sup>.

21 - مقدمة عبد الوهاب المسيري وهدى عبد السميع لترجمة كتاب «الغرب والعالم»: 14، سلسلة عالم المعرفة، عدد: 90. والأفراد الذين يودون التهام العالم مثل: فاوست الذي يود التهام كل المعرفة، ودون جوان الذي يود التهام كل النساء، ودراكيولا الذي يلعب دماء معشوقاته ويتغذى على دمه.

22 - الإسلام بين الشرق والغرب: 195.

23 - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (116/3): «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح».

24 - رواه الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك.

• «الحياء من الإيمان»<sup>25</sup>.

• «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»<sup>26</sup>.

• «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن: الذي لا يأمن جاره بوائقه»<sup>27</sup>.

• «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر»<sup>28</sup>.

كما أن العبادات لا تكمل إلا بالأخلاق، فإن عموم القربات تفضلُ غيرها بالأخلاق أيضاً، مثل الصدقة، فهي قرينة من المتصدق، وتفضل غيرها من الصدقات إن قُدِّمت للقريب، قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

هذه النصوص - وغيرها كثير - تربط بين الإيمان/العقيدة وبين الأخلاق والقيم، وهو الأمر الذي تعود الناس خلافه، وجرى العمل على الفصل بينهما، ويمكن أن نقول إن الأمانة والحياء وقول الخير وإكرام الضيف والمعاملة الحسنة مع الجار وغيرها من المثل هي مداخل أساسٌ للإيمان، لذا أكرم الله تعالى بها نبيه ﷺ وأدبه بها قبل البعثة، ويمكن أن نقول: كن حياً وأميناً ومكرماً لجارك تكن مؤمناً، ولا يسوغ أن نقول: آمن تكون حياً، أو آمن تكن أميناً، أو آمن تكن محسناً إلى جارك. وهذا ما عبّر عنه علي

عزت بيغوفيتش رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله: «افعل الخير تصبح مؤمناً»<sup>29</sup>.

25 - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان.

26 - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف...

27 - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه.

28 - رواه النسائي، كتاب الغسل والتيمم، باب الرخصة في دخول الحمام.

29 - الإسلام بين الشرق والغرب: 199.

فالأخلاق هي مداخل الإيمان، لذا ركّز عليها النبي ﷺ في خطبته الأولى أثناء وصوله إلى المدينة النبوية بعيد الهجرة، وكان يؤكد عليها ولا يكاد يذكر غيرها للوفود التي تفسد إليه جماعاتٍ وأفراداً. جاءه مرةً رجلٌ وقال له: يا رسول الله، إنا قوم من أهل البادية، فعلّمنا شيئاً ينفعنا الله به، قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وتسبيل الإزار، فإنه من الخيلاء، والخيلاء لا يحبها الله، وإن امرؤ سبّك بما يعلم فيك فلا تسبه بما تعلم فيه، فإن أجره لك، ووبأته على من قاله»<sup>30</sup>. وجاءه رجل آخر، وقال: يا رسول الله، أوصني، فقال له: «لا تغضب»، وردد مراراً: «لا تغضب»<sup>31</sup>.

إن الأخلاق في الإسلام - كما قال العلامة علال الفاسي - «ليست مأخوذة من المجتمع، والاستفادة من المنفعة كما يقول بعض الفلاسفة الأوروبيين مثل ديكارت وسبينوزا ومن إليهما، وليست هي القيام بالواجب كما يقول أنصار داروين وسبنسر وأضرابهم، ممن يؤمنون بالقوة والأنانية، خُلق (الأنثى)، وليست مجرد تطورٍ من تطور العادات كما يراه فلاسفة متأخرون؛ وإنما الأخلاق في الإسلام ثمرة الإيمان، فحينما يؤمن الإنسان يشع نور الإيمان على أعماله وسلوكه، فيصير ممثلاً لأوامر الله، مجتنباً لنواهيه؛ أي: متخلقاً بأخلاق الإسلام»<sup>32</sup>.

ولعل الاقتران الملموس بين الأخلاق والإيمان والارتباط بينهما هو السبب الرئيس للتقارب النسبي بين النصارى والمسلمين، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصٌ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: 82]. ووجه التقارب والتداني بينهم وبين المسلمين أن منهم رهباناً يؤثرون الجانب الأخلاقي والروحي على الجوانب الدنيوية، إضافة

30 - رواه الإمام أحمد، مسند حديث جابر بن سليم الجهيمي.

31 - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

32 - علال الفاسي، أفكار وآراء واجتهادات: 15.

إلى عدم الاستكبار المنصوص عليه في خاتمة الآية، وهذا من محاسن الشمائل، وهذه لطيفة دقيقة في القرآن الكريم<sup>33</sup>.

وإضافة إلى أن القيم والأخلاق مداخل الإيمان فهي أيضاً وسائل الارتقاء في معارجه، فيزداد إيمان المؤمن بكثرة الحياء والستر والتعفف والإخلاص والأمانة وإكرام الضيف والإحسان إلى الجار... لذلك قال الإمام ابن العريف رحمته الله عن الإيمان: «شجرته تسقى بماء الطاعة، وتلقح بلقاح الأدب»<sup>34</sup>.

### الأخلاق أساس البناء الحضاري، وطريق الانهيار

إضافة إلى أن القيم والأخلاق مداخل الإيمان فهي أيضاً وسائل الارتقاء في معارجه، فيزداد إيمان المؤمن بكثرة الحياء والستر والتعفف والإخلاص والأمانة وإكرام الضيف والإحسان إلى الجار...

أشار النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحاديث إلى جملة من القيم الخلقية، وبيّن أنها أسس البناء الحضاري للأمم، وأن لا نهضة إلا بها، وأن فقدانها والزيغ عنها يؤدي - لا محالة - إلى الانهيار الحضاري، وأمثلة ذلك، قوله صلى الله عليه وسلم :

• «فوالله لا أفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»<sup>35</sup>.

33 - وجدت قريباً من هذا المعنى ما قاله أبو حفص سراج الدين النعماني (ت: 775هـ) في تفسير الآية: «كُفر النصارى أغلظ من كفر اليهود؛ لأن النصارى ينازعون في الإلهيات والنبوات، واليهود لا ينازعون إلا في النبوات، ولا شك أن الأول أغلظ؛ لأن النصارى مع غلظ كفرهم لم يشترد حرصهم على طلب الدنيا، بل كان في قلبهم شيء من الميل إلى الآخرة، شرفهم الله بقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَتْنِي﴾. وأما اليهود - مع أن كفرهم أخف من كفر النصارى - طردهم الله وخصّهم بمزيد اللعنة، وما ذلك إلا بسبب تهالكهم على الدنيا». اللباب في علوم الكتاب: 479/7. دار الكتب العلمية، ط1. 1419هـ - 1998م.

34 - مفتاح السعادة، وتحقيق طريق السعادة. لابن العريف: 86. جمع عتيق بن مؤمن. دراسة وتحقيق عصمت دندش. دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م.

35 - رواه البخاري، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ورواه مسلم، كتاب الزهد والرفائق.



• «اتقوا الشح، فإن الشح أهلك مَنْ كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»<sup>36</sup>.

• «إنما هلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»<sup>37</sup>.

من خلال هذه النصوص يُجلى النبي ﷺ أسباب هلاك الأمم السابقة واندحارها الحضاري، وتمت صياغة تلك الأسباب على وزان السنن الكونية التي لا تتخلف، فالهالك الحضاري للأمم السابقة لم يرتبط بالأزمات الاقتصادية أو شح الموارد الطبيعية أو غيرها؛ وإنما ارتبط بأخلاقيات سلبية تنخر جسم الأمة من الداخل، ويكفي التأمل في الحديث الثالث وصياغته، وفيه إشارة لطيفة دقيقة، لم أقف على من التفنت إليها من علمائنا؛ لأنهم درسوا هذا المتن النبوي، وتوقفوا عند السرقة ومفهومها، والحرز وحدّه، والشفاعة في الحدّ بعد بلوغه الإمام، وغير ذلك من القضايا الفقهية أو اللغوية، ولم ينتبهوا إلى المحاباة في القضاء، وعدم المساواة أمام القانون، وما يترتب عليه من انهيار حضاري، سوى إشارة عابرة من الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ، حين قال: «وأما المساواة في التنفيذ فقد غُني الإسلام برعايتها، ودلّ على أن التعامي عنها من أسباب سقوط الأمم وهلاكها»<sup>38</sup>.

وغير خاف على كلّ نبيّه ما لمرفق العدالة والقضاء من أهمية في المجتمعات المعاصرة، ويكفي أن أذكر علاقة الاستثمار بالقضاء؛ لأنّ المستثمرين يَفِدون على بلدٍ ما زرافاتٍ ووحداناً إذا كانوا على ثقة بقضائه، وبنزاهته واستقلاله، ويمكن - في المقابل - للمستثمرين أن يَفِرُوا من البلد إن فقدوا الثقة في مرفق القضاء، ولمسوا ما فيه من المحاباة وعدم المساواة بين

36 - رواه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

37 - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار. ورواهن مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره...

38 - رسائل الإصلاح للإمام محمد الخضر حسين، منشور ضمن موسوعة الأعمال الكاملة له: 40-1/5.

المتقاضين، فيحس المستثمر بما يهدد رأسماله من أخطار، ويضطر إلى التوجه نحو وطن آخر يطمئن لعدالته، ويحتمي بقضائه، وغني عن البيان أن مغادرة المستثمرين لبلدٍ ما تعود سلباً على اقتصادها، سواء على مستوى الإنتاج أو على مستوى التصدير وجلب العملة، أو على مستوى تسريح العمال، وتعميق أزمات البطالة، وغير ذلك، وكل هذه الآثار ما هي إلا نتيجة من نتائج عدم العدل، أو المحاباة في العدل. وإذا كان فقدان المساواة أمام القضاء سبباً مؤدياً إلى تراجع الاقتصاد؛ فإنه - لا محالة - من مسببات انهيار المجتمع، وهو ما عبّر عنه العلامة ابن خلدون بحسه الذكي حين قال: «الظلم مؤذن

بخراب العمران»، وهو منطوق قول النبي ﷺ :  
«إنما هلك من كان قبلكم». وهو ما قاله نظماً  
أمير الشعراء أحمد شوقي رَحِمَهُ اللهُ :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

### الأخلاق الحسنة وآثارها من خلال السُّنة النبوية

بالنظر والتأمل في عدد وافر من النصوص  
الحديثية، يتبين لنا الآتي:

#### 1 - الثناء على المتخلفين بمكارم الأخلاق

كان النبي ﷺ كثير الثناء على ذوي الأخلاق الحسنة والقيم المثلى، خصوصاً إذا كانت أخلاقاً ترتقي إلى مستوى التنظيم الجماعي، وليست أخلاقاً صادرة عن آحاد الناس، قال رسول الله ﷺ : «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»<sup>39</sup>.

39 - رواه البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين.

غير خاف على كلِّ  
نبيه ما لمرفق العدالة  
والقضاء من أهمية في  
المجتمعات المعاصرة،  
ويكفي أن أذكر علاقة  
الاستثمار بالقضاء؛ لأن  
المستثمرين يفدون على  
بلدٍ ما زرافاتٍ ووحداً إذا  
كانوا على ثقة بقضائه.

كان الأشعريون في مراحل الشدة والأيام العصيبة يقتسمون ما يتحصل عندهم، وكأنهم أفراد أسرة كبيرة، وهذا التقاسم أو العطاء المتبادل يستبطن قيماً أخلاقية مُثلى: قيم الإيثار والمواساة والمساواة في وقت الشدة، ولما وقعت هذه الأخلاق من الرسول ﷺ موقع القبول والرضى فإنه ارتقى بأصحابها ورفع قدرهم إلى درجة التماهي معه، فنسبهم إليه، وأضافهم إلى جنابه الفخم تشريفاً وتكريماً: «هم مني، وأنا منهم»؛ للدلالة على اتحاد أخلاقهم وأخلاق النبي ﷺ.<sup>40</sup>

## 2 - أفضلية المتخلفين بمكارم الأخلاق

تُعَدُّ الأخلاقُ الحسنة معياراً أساساً للخيرية والمفاضلة بين البشر في السُّنَّة النبويَّة؛ قال رسول الله ﷺ:

- «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»<sup>41</sup>.
- «ليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة»<sup>42</sup>.
- «خيركم أحسنكم قضاء»<sup>43</sup>.
- «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»<sup>44</sup>.

40 - هذه الطريقة التي كان يتعامل بها الأشعريون بقيت في المجتمعات الزراعية بالخصوص إلى وقت قريب، مثل هنود الكواكيوتل على الساحل الكندي للمحيط الهادي، حيث كانوا يعتقدون ما يشبه المهرجان السنوي لاستعراض الثروات بالتنازل عنها، وإعادة اقتسامها بالسوية، وهو ما أثار علماء الأنثروبولوجيا، وأطلقوا عليه «عادة الانتقال من الثراء إلى الأسماك»، وهي طريقة لتوزيع الثروة بالعدل والقسطاس على أهل القبيلة، وكان هذا المهرجان بمثابة نظام سنوي لتحقيق المساواة وإزالة الفوارق، مما يكفل حصول كل فرد على الرعاية، وعدم احتكار أحد للثراء الفاحش، أو السلطة لأمد أطول. الغرب والعالم: 63/2.

41 - رواه الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ. ورواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء.

42 - رواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب أفضل النساء.

43 - رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب استقراض الإبل. ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقتضى خيراً منه...

44 - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ.

- «خيركم مَنْ أظعم الطعام»<sup>45</sup>.
- «أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً»<sup>46</sup>.
- «خيركم مَنْ يُرعى خيره، ويؤمن شره»<sup>47</sup>.

يتبين من خلال هذه الأحاديث النبوية، أن الأفضلية والخيرية لا تنبني إلا على محاسن الأخلاق، مثل حسن القضاء، ورجاء الخير، وإطعام الطعام، بل إن حسن الخلق هو الذي يرتقي بصاحبه إلى درجة «أكمل المؤمنين إيماناً»، وهو ما يعضد ما ذهبنا إليه، من كون الأخلاق مداخل الإيمان أولاً، وسبل الترقى في معارجه للوصول إلى درجة الكمال ثانياً.

يتبين من خلال الأحاديث النبوية، أن الأفضلية والخيرية لا تنبني إلا على محاسن الأخلاق، مثل حسن القضاء، ورجاء الخير، وإطعام الطعام، بل إن حسن الخلق هو الذي يرتقي بصاحبه إلى درجة «أكمل المؤمنين إيماناً».

تنبني المفاضلة بين الناس في السُّنة النبوية على الأخلاق، ولا تنبني على غيرها، كالعلم مثلاً؛ لأن الأخلاق لا يمكن أن تهدد الدين، ولا الدين يمكن أن يهدد الأخلاق، فبينهما ترابط وانسجام، أما العلم فقد يحدث خللاً في المنظومة الأخلاقية، وقد يكون في مواجهة الدين ومبادئه، مثل: القتل الرحيم، والإجهاض، والإعقام، وزرع الأعضاء، والإخصاب الصناعي، والاستنساخ البشري، كل هذه القضايا لا يمكن تصوُّرها دون علم، وهي من نتاجه، بل هي دالة على تقدّم علمي تقني، وفي

المقابل، فإن بعضها - مثل الإجهاض والقتل الرحيم - لا يعدو كونه «جريمة ضد الإنسانية؛ لأن فيهما خطأً بالإنسان إلى مستوى الأشياء، وهذا يؤدي إلى التلاعب بالإنسان والإساءة إليه»<sup>48</sup>. لهذه التعليقات أشار النبي ﷺ انتباه المسلمين إلى ضرورة التخلق، أو إلى مبدأ الترقى بالتخلق، وهو ما يصطلح

45 - رواه أحمد، مسند حديث صهيب. ورواه الحاكم، كتاب الأدب.

46 - رواه الإمام أحمد، مسند الكثيرين من الصحابة، مسند أبي هريرة.

47 - رواه أحمد، مسند الكثيرين، مسند أبي هريرة.

48 - الإسلام بين الشرق والغرب لعلي عزت بيغوفيتش: 189.

عليه في الأدبيات الصوفية بـ «التزكية»، والإنسان المتخلق لا يهدد الإنسانية إن كان متعلماً، والإنسان المتعلم قد يهدد البشرية إن لم يكن متخلقاً<sup>49</sup>.

وفي مقابل التفضيل يمكن التنقيص من قدر الإنسان والإزاء به، بناءً على ما يتخلق به من الرذائل الخلقية، ومن نماذج ذلك، قول رسول الله ﷺ:

• «إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَنْ تركه الناس اتقاء شره»<sup>50</sup>، وفي رواية: «اتقاء فُحْشه»<sup>51</sup>.

• «تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه»<sup>52</sup>.

### 3 - شمول الرحمة للمتخلفين بمكارم الأخلاق

يستحق صاحب الأخلاق الحسنة الرحمات الإلهية، ويستمطرها ويتلقاها، قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»<sup>53</sup>. فمن كان سهلاً المعاملات، سمحاً، نال بركة دعاء النبي ﷺ بالرحمة، وشملته بركتها، وإن لم يجتمع به ولم يعاصره.

وعلى النقيض من ذلك، فإن مساوئ الأخلاق تستوجب اللعنة والمقت وغضب الله تعالى، قال رسول الله ﷺ:

• «لعن الله السارق»<sup>54</sup>.

49 - صناعة القنابل النووية والهيدروجينية والأسلحة المحرمة دولية كلها تبني على العلم وتتطور بالعلم، في منأى عن الأخلاق.

50 - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً...

51 - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس. رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقى فحشه.

52 - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...». ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب. باب ذم ذي الوجهين وتحريم فعله.

53 - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع...

54 - رواه البخاري، كتاب الحدود، باب لعن السارق إذا لم يُسَمَّ. ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها.

- «لعن الله من لعن والده، ولعن الله من غير منار الأرض»<sup>55</sup>.
- «لعن الله من مثل بالحيوان»<sup>56</sup>.

#### 4 - دخول الجنة للمتخلفين بمكارم الأخلاق

تسهم الأخلاق الحسنة في دخول المتخلف بها إلى الجنة. وتيسر له ذلك، قال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً كان فيمن كان قبلكم، أتاه الملك ليقبض روحه، فقيل له: هل عملت من خير؟ قال: ما أعلم. قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئاً، غير أنني كنت أبايع الناس في الدنيا،

يستحق صاحب الأخلاق الحسنة الرحمات الإلهية، ويستمطرها ويتلقاها، قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى». فمن كان سهل المعاملات، سمحها، نال بركة دعاء النبي ﷺ بالرحمة.

وأجازيهم، فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة»<sup>57</sup>. ورواه مسلم بلفظ: «كنت أنظر المعسر»<sup>58</sup>. وإنظار المعسر: تأخير أجل تسديد الدين حتى يتيسر له الأداء، وهذا من مكارم الأخلاق، استحق صاحبه دخول الجنة والتعم بنعيمها، جزاء تنعم المعسر بتأخير أجل التسديد.

ومن القيم الخلقية التي تدخل صاحبها الجنة: القسط والعدل، والرحمة، والعفة، قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعضيف متعفف ذو عيال»<sup>59</sup>.

وفي المقابل، فإن الأخلاق الرديئة تعدّ حائلاً بين المرء ودخول الجنة، قال رسول الله ﷺ:

55 - رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله.

56 - رواه النسائي، كتاب الضحايا، باب النهي عن المجثمة.

57 - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

58 - ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر.

59 - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة.



- «لا يدخل الجنة قاطع رحم»<sup>60</sup>.
- «لا يدخل الجنة قتات»<sup>61</sup>.
- «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»<sup>62</sup>.
- «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كِبْرٍ»<sup>63</sup>.

هذه جملة أخلاق، نصّ النبي ﷺ على منع المتلبس بها من دخول الجنة. ولا يعاقب أصحابها بهذا الحرمان، إلا لعظمتها وخطورتها على المجتمع.

### تأسيساً على ما سبق، يتبين لنا الآتي:

ركزت نصوص السُّنة النبوية الشريفة على مجموعة من القيم والأخلاق، مما أكسبتها قوتها المعيارية، وأنها ثابتة غير قابلة للتبديل أو التغيير، فالصدق كان وسيبقى قيمةً إيجابية مرغّباً فيها، ومثله الأمانة وصلّة الرحم وحسن القضاء وإنظار المعسر...، بخلاف المنظومة الغربية، التي اشتهرت فيها مجموعة نظريات، كلها تدلُّ على تغير القيم وعدم ثباتها؛ لأن السوق هو الذي يتحكّم في الأخلاق بحسب هوبز، والناس هم الذين يصوغون قوانينهم الأخلاقية والسياسية بأنفسهم بحسب أطروحة جون لوك<sup>64</sup>. وإذا أرجعنا القيم الأخلاقية إلى مرجعية السوق أو إلى تواضع أفراد المجتمع فإن القيم قابلة للتغير، فتصير محمودة بعد أن كانت مذمومة، أو العكس، وهذا ما تعصمنا منه النصوص الشرعية المتضمنة للقيم الأخلاقية؛ لما لها من مرجعية سامية، وقوة تأطيرية.

60 - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها. ورواه البخاري بلفظ: «لا يدخل الجنة قاطع».

61 - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة. والقتات: النَّمَام.

62 - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار.

63 - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

64 - الغرب والعالم: 40/2 - 43.

الحضور القوي للأخلاق في النصوص الحديثية يدل بجلاء على أن الهدف من بعثة النبي ﷺ هو بناء الأفراد المسلمين على الأخلاق الفاضلة، وإشاعة التربية الإيمانية في المجتمع، وأن الحديث عن الأخلاق ليس ترفاً فكرياً، أو من نافل القول، بل هو أصل من أصول الشريعة، وركنٌ ركين في الدين، وأن «تزكية الأنفس» من أسمى مقاصد الدين.

الإعراض عن الأخلاق والتكبر عنها هو إيذان بخراب العمران، وتهديد للأوطان؛ لأنه من الإفساد الذي لا يحقق مقصد عمارة الأرض، وهو المقصد الأهم من وجود الإنسان، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61].

**الحضور القوي للأخلاق في النصوص الحديثية يدل بجلاء على أن الهدف من بعثة النبي ﷺ هو بناء الأفراد المسلمين على الأخلاق الفاضلة، وإشاعة التربية الإيمانية في المجتمع، وأن الحديث عن الأخلاق ليس ترفاً فكرياً.**

وهذه الإشارات والتنبيهات تبين في مجموعها مركزية الأخلاق وسموها في المنظومة الدينية الإسلامية، وتبيّن خطأ مَنْ جعلها في مرتبة دنيا، وأنها من التكميليات ليس إلا، ولعل المحدثين أكثر العلماء اهتماماً بالأخلاق، ألّفوا في محاسنها ومكارمها مصنفات مسندة، وأفردوا للأدب أو البرّ كتباً مدرجة ضمن الجوامع والسنن، وتفننوا في ذلك، ولهم لطائف دقيقة، وإشارات لطيفة، فكان أول ما يتبركون به روايتهم للحديث الذي يحض على خلق الرحمة، وهو المعروف في

أدبياتهم بالحديث المسلسل بالأولية، فيرويه المحدث عن شيخه، وينص في كل حلقات الإسناد على أنه أول ما سمعه منه. واشتهروا أيضاً بالحديث المسلسل بحسن الخلق، وهو ما نجعله حسن الختام ومسكه، قال العلامة المحدث السيد عبد العزيز بن الصديق رَحِمَهُ اللهُ: أخبرنا شقيقنا وشيخنا خاتمة الحفاظ، أبو الفضل السيد أحمد، وهو ذو حفظ وخلق حسن، قال: أخبرنا محمد توفيق الدمشقي بها، وخلقه حسن، أنا محمد بن محمد نسيب الحمزاوي، وكان ذا خلق حسن، أنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكزبري، وعلمه حسن، أنا أبي بحديث حسن، أنا جدي، وله خلق حسن، أنا



محمد بن أحمد المكي، وكان ذا خلق وعلم حسن، أنا حسن بن علي العجيمي، واسمه وعلمه حسن، أنا عبد الرحيم بن الصديق الحنفي، وكان ذا خلق حسن، أنا الطاهر بن الحسين الأهدل، وخلقته حسن، أنا وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الربيع، وحفظه حسن، أنا أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي، وكان حاله حسناً، أنا شمس الدين محمد بن أحمد الخزرجي، ووجهه وخلقته حسن، أنا الحسين بن أحمد بن هلال الصالحي فيما شافهني بلفظه الحسن، أنا علي بن أحمد المقدسي أبو الحسن، أنا أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، صاحب الوعظ الحسن، أنا أبو بكر أحمد بن الطريشتي، وسمته حسن، أنا أبو سعيد فضل الله بن أحمد النيسابوري، وكان حاله حسناً، أنا أبو العباس بن أبي الحسن، ثنا أبي أحمد بن عمر أبو الحسن، ثنا محمد بن زكريا الغلابي، رجل حديثه حسن، ثنا الحسن (بن سهل)، عن الحسن (بن دينار)، عن الحسن بن أبي الحسن (البصري)، عن الحسن (بن علي عليه السلام)، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحسن الحسن، الخلق الحسن»<sup>65</sup>.

65 - رواه بإسناده المسلسل بالحسن، العلامة السيد عبدالعزيز بن الصديق الغماري في الأربعون العزيرية في مكارم الأخلاق ومعاليها: 1 (مخطوط).